الاستلهام القرآني في مثنوي المولوي
قصة الببغاء والتاجر "نموذجًا"

أ.د. شيرين عبد النعيم محمد حسنين*

الملخّص

إنّ المثنوي كتابٌ قلَّ نظيره بين الكتب العرفانيّة الأخرى، بل يُعدُّ التفسير المنظوم للقرآن الكريم، ذلك لأنّ مؤلّفه جلال الدين الرومي المعروف بالمولوي رجلٌ عارفٌ وعالمٌ وشاعرٌ كبيرٌ أمضى كلّ عمره باكتساب المعرفة وتهذيب النفس.

استخدم المولوي في المثنوي أساليبَ مختلفة كالتضمين، التلميح والتمثيل من الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة وقصص الأنبياء كي يبيّنَ للناس المفاهيمَ القرآنيّة للآيات الإلهيّة والتفاسير العرفانيّة.

طبعًا تُعدّ أشعار المثنوي من أجمل مجموعات الشعر العرفاني للوصول إلى حقائق المعارف الإلهيّة، وقد احتلّت مكانةً بارزة بين الأدبين الفارسي والإسلامي.

لذا اختارت منظّمة الأمم المتحدة يومَ الثلاثين من أيلول / سبتمبر اليومَ العالمي لتقدير هذا الشاعر والعارف الكبير وإحياءً لذكراه.

الكلمات المفتاحيّة: *الاستلهام، القرآن الكريم، المثنوي، جلال الدين الرومي.*

* أستاذة اللغة الفارسيّة وآدابها، رئيسة قسم اللغات الشرقيّة ووكيلة كليّة الآداب للدراسات العليا والبحوث السابقة، جامعة عين شمس، جمهوريّة مصر العربيّة shereen_hassanain@art.asu.edu.eg

يعدّ جلال الدين الرومي أحد رواد الحضارة الإسلاميّة الذين خلّدهم التاريخ، وذلك بصفته شخصيّة متعدّدة الجوانب، فهو واعظ وشاعر ومتصوّف ويرجع هذا إلى أنّه ربيب أسرة عالمة متديّنة، فقد كان أبوه عالمًا متديّنًا تمتّع بمنزلة مرموقة حتى إنّه لُقّب "بسلطان العلماء".

تتلمذ الابن على يد الأب، فكان يحضر حلقات دروس الوعظ التي كان يعقدها أبوه منذ صغره، ثمّ على أيدي أصدقائه.

كما تولّى جلال الدين الرومي أيضًا التدريس والوعظ بعد أبيه في مدينة قونية ببلاد الروم التي نُسب إليها بعد أن استقرّ فيها، حتى حدثت نقطة التحوّل في حياته فانصرف عن الوعظ وانصرف إلى حياة التأمل الصوفيّ، وانخرط في التعبير عن حياته الجديدة بفيض غامر من الشعر بلغ أعلى درجات الحسّ الصادق والإبداع الفنيّ فجسّد امتزاج حياته الفكريّة بحياته العلميّة من شعر صوفيّ إسلاميّ بنّاء (جلال الدين الرومي: فصول من المثنوي، ١٩٤٦، ص٣).

المثنوي المعنوي هو أحد روائع الأدب الفارسيّ بوجه عام وكتب الصوفيّة بوجه خاصّ، فقد تُرجم إلى أغلب لغات العالم. يقع في ستة أجزاء تعرف باسم الدفتر، تتعدّى الخمسة والعشرين ألف بيت من الشعر على شكل قصص وحكايات، اعتمد في مصادرها على مصادر الثقافة الإسلاميّة والحضارات السابقة وعلى رأسها القرآن الكريم والسنّة النبويّة، ويتضح هذا في قوله: "أنا خادم القرآن وذرة تراب المصطفى صلى الله عليه وسلّم" (محمد عبد السلام كفافي: ١٩٧١، ص ١٠-١٢).

قد تكون هذه القصص والحكايات واقعيّة أحيانًا وغير حقيقيّة أحيانًا أخرى، عرضَها وصوّرها من خلال الإطار التمثيليّ والتشبيهات الشعريّة، وهي ليست ذات وحدة موضوعيّة متماسكة، وكانت تتخلّلها الأمثال والحكم والمواعظ والأقوال (سيد محمد حسيني: ١٣٨١هـ.ش، ص ١٨٣، ١٨٤).

كما يقول لتلاميذه ومريديه في آخر وصاياه: "أوصيكم بتقوى الله في السرّ والعلانية وبقلّة الطعام ودوام القيام وترك المعاصي والآثام وهجرها، ومواظبة الصيام، وترك الشهوات على الدوام، واحتمال الجفاء من جميع الأنام وترك مجالسة السفهاء

والعوام، ومصاحبة الصالحين، فإنّ خير الناس من ينفع الناس وخير الكلام ما قلّ ودلّ والحمد لله وحده".

لذلك تناولت موضوعات المثنوي الحياة بشتى مناحيها وتطرّقت إلى كل الجوانب الأخلاقيّة والسلوكيّة من خلال قصص وحكايات حول الأنبياء وصحابة النبي صلى الله عليه وسلم وأهل الحرف والشخصيّات العاميّة البسيطة، كان هدفه ورسالته من خلالها إعادة بناء الذات الإنسانيّة من خلال صور من الحياة اليوميّة عرضها وصوّرها من خلال الإطار التمثيليّ والتشبيهات الشعريّة بغية شرح وتأكيد التعاليم والمبادئ الإسلاميّة مثل حقيقة التوحيد، وماهية الروح، وكيفيّة الحشر والنشر، وحدود الجبر والاختيار، وحلّ رموز التصوّف الدقيقة، والحكم والمواعظ، ويتضح ذلك في قوله "إنّ الدين في الواقع هو أسمى الطرق والطريق الوحيد للقاء الله، ويلزم الإنسان أن يدرك الهدف من التعاليم الإسلاميّة، ويحسن الاستفادة منها، لأنّ الدين مختصّ بعامة الناس (فرزاد قائمى: ١٣٨٦هـ.ش، ص١٨٣، ١٨٤، ١٦٨).

كما يقول لتلاميذه ومريديه في آخر وصاياه: "أوصيكم بتقوى الله في السر والعلانية وبقلة الطعام ودوام القيام وترك وهجر المعاصي والآثام، ومواظبة الصيام، وترك الشهوات على الدوام، واحتمال الجفاء من جميع الأنام وترك مجالسة السفهاء والعوام، ومصاحبة الصالحين، فإنّ خير الناس من ينفع الناس وخير الكلام ما قلّ ودلّ والحمد لله وحده (يوسف أبو الحجاج: لا تا، ص١٧).

لذلك تناولت موضوعات المثنوي الحياة بشتى مناحيها حيث طرق كلّ الجوانب الأخلاقيّة والسلوكية من خلال قصص وحكايات مستلّة من سِيَر الأنبياء وصحابة النبي صلى الله عليه وسلّم، ويوميّات أهل الحرف والشخصيات العامية البسيطة، كان هدفه ورسالته من خلالها إعادة بناء الذات الإنسانيّة من خلال صور من الحياة اليوميّة عرضها وصورها من خلال الإطار التمثيلي والتشبيهات الشعرية بغية شرح التعاليم والمبادئ الإسلاميّة وتأكيدها، حقيقة التوحيد، وماهية الروح، وكيفيّة الحشر والنشر، وحدود الجبر والاختيار، فيرسم صورة صادقة للعشق الإلهي، ويبدو ذلك في قول الرومي: " الدين في الواقع هو أسمى الطرق، والطريق الوحيد للقاء الله،

ويلزم الإنسان أن يدرك الهدف من التعاليم الإسلامية ويحسن الاستفادة منها."

وقد تجلّى هذا واضحًا في قصص وحكايات المثنوي كافة، ونستعرض قصة "التاجر والببغاء" نتلمّس من خلالها ما سبق ذكره من منهجية الرومي في نظم القصص وهدفه ومقصده في كل قصة.

مؤدّى هذه القصة هو أنّ تاجرًا كان يقتني ببغاء حبيس قفص، وذات يوم نوى التاجر أن يسافر إلى الهند، فسأل الببغاء عمّا يريد من أسراب الببغاء حين يراها في الهند، فطلب إبلاغهم بما يعانيه من عناء الحبس ونسيانه وهم ينعمون بالحريّة، فلما أبلغهم رسالته ارتعد أحد الببغاوات وخرّ ميتًا، فندم على إبلاغهم، ولما رجع إلى بلده أبلغه جواب رسالته مبديًا أسفه، فانتفض الببغاء وخرّ ميتًا أيضًا، فحزن التاجر، وندم ولام نفسه على التكلم بما لا يدرك عاقبته، ثمّ أخذ الببغاء من القفص ورمى بها خارجه، فإذا الببغاء يطير ويقف على غصن شجرة، فدهش التاجر وسأله، فإذا هو يجيبه: هذه هي الرسالة التي رجعت بها من الهند، وهي أن أفعل مثل ما فعل الببغاء التي خرّ أمامك هامدًا وأموت موته لأخلّص الروح من أسرها.

والواضح من مؤدّى هذه القصّة أنّ هدف ومقصد الرومي منها أنّ الروح الإنسانيّة حبيسة الجسد، وأنّ بلاد الهند هي رمز لعالم الأرواح الطليقة، وأنّ الموت هو رمز غاية طريق الصوفي وهي تحقيق الفناء ووحدة الوجود.

سبق وذكرنا أنّ منهج الرومي في سرد قصصه هو عدم وجود وحدة موضوعيّة، وذلك كي يبثّ مواعظه ومقاصده بين ثنايا سرد القصة من خلال استطراد طويل، وهذا ما نجده في هذه القصة، ومن خلالها سردَها في مواضع عدة، نذكر منها على سبيل المثال، طلبه من التاجر إبلاغ رسالته للببغاوات ما ترجمته:

برشما كرد او سلام وداد خواست وز شما چاره وره ارشاد خواست

گفت می شاید که من در اشتیاق جان دهم اینجا بمیرم در فراق

[يلقي السلام عليكم ويطلب العدل؛ ويسألكم الوسيلة وطريق الإرشاد

قال: أيليق أن أسلّم الروح اشتياقًا؛ وأموت هنا من الفراق]

ثم يستطرد فيصف أجنحة طيور العقول الإلهية فيقول:

-لأنه طائر ضعيف بريء، تكمن فيه قوّة سليمان وجنوده (المرجع السابق، ص٣٧، ٣٨).

والشاعر هنا يصف طائر العقل الإلهي الذي يبدو ظاهره ضعيفًا لكنه بما يختلج في جوارحه من طهر وصفاء وعشق إلهي جعله في قوة سيدنا سليمان وجنوده.

ثم ينتقل إلى محاورة التاجر وببغاوات الهند، فيبثّ من خلالها النصح للإنسان بأن يكون عفيف اللسان، وأن يتعقّل ويفكّر قبل أن يتفوّه بكلامه كي لا يتسبّب بأذى كبير وفتنة، يقول:

سنگ آهنرا مزن برهم گزاف　　که ز روی نقل که از روی لاف

عالمی را یک سخن ویران کند　　روبهان مرده را شیران کند

[فلا تضرب الحديد والحجر معا خبط عشواء؛ حينًا من طريق الرواية وحينًا مثرثرًا

-[رُبّ] كلمة تدمر عالمًا؛ [وكلمة] تجعل الثعالب الميتة أُسودًا]

وهنا يدعو الرومي إلى الكلمة الطيّبة، لأنّ كلمة السوء تجلب الفتنة، وضرب مثلًا جميلًا فكلمة السوء تدمّر عالمًا وتحيي الثعالب الميتة لتصبح أسودًا، وهو تشبيه بليغ يجسّد فحش الكلمة السيئة وأضرارها ويستطرد ثانية ويتحدث عن أصل الروح فيقول:

جانها در اصل خود عیسی دمند　　یکزمان زخمند وگاهی مرهمند

[الأرواح في أصلها كنفحة عيسى؛ حينًا تكون جراحًا وحينًا تكون بلسمًا]

ويشير هنا إلى أنّ روح الإنسان نفحة من الله وهي إشارة صوفية جميلة إلى وحدة الوجود.

ويواصل استطراده بذكر تقرير للشاعر فريد الدين العطّار، نصح الإنسان في ثناياه بألّا يتبع خطوات الشيطان، وأن يكون عبدًا صالحًا أسوةً بسيّدنا إبراهيم عليه السلام، يقول:

در تو نمرودیست در آتش مرو　　رفت خواهی اول ابراهیم شو

[في داخلك نمرود فلا تلق بنفسك في النار؛ كن سيدنا إبراهيم أولا ثم اِذهب]

ثمّ ينصح الإنسان محذّرًا بألّا يلقي بنفسه إلى التهلكة من خلال صورة شعريّة

جميلة وبليغة فيقول:

چون نه سباخ ونی دریائی　　درمیقگن خویش از خودرائیی

[ولأنك لست سبّاخًا ولا تجوب البحار　فلا تلقي بنفسك إلى التهلكة]

ثمّ يستطرد استطرادًا طويلًا في حديث عن قصّة سيّدنا موسى عليه السلام والسحرة، وتعظيم السحرة له، فوقعوا ساجدين مقرّين بعبوديتهم لله الواحد القهّار، وقد تخلّل هذا الحديث بعض النصح والمواعظ نذكر بعضها، يقول في حسن وتقويم الروح وتهذيبها منذ الطفولة على حبّ ومعرفة الله والتقرّب إليه:

طفل جان از شیر شیطان باز کن　　بعد از آنش با ملك انباز کن

[افطمْ طفلَ الروح عن لبن الشيطان؛ ثمّ قرّبه إلى الرحمن بعد ذلك]

كما يحثّه على الكسب الحلال وتجنّب الحرام فيقول:

علم و حکمت زاید از لقمه حلال　عشق و رقت آید از لقمه حلال

[العلم والحكمة يولدان من اللقمة الحلال؛ والعشق والصفاء يولدان من اللقمة الحلال]

أي: تولد من العيش الحلال طاعة الله وحبّ لقاء الآخرة.

ثم يضرب الشاعر للإنسان مثالًا من خلال تصوير شعري بديع، وأنّ الإنسان يُثاب على ما يقترفه، وكيف سيدنا آدم عليه السلام تاب وندم ودخل في طاعة ربّه فيقول:

هیچ گندم کاری و جو بر دهد　　دیده اسبی که گره خر دهد

ز آنکه آدم ز آن عتاب از اشک رست　　اشك تر باشد دم توبه پرست

[أي قمح يزرع وينمو شعيرًا، وأيّ عين خيل ترى نسل حمار؟!

-لأن آدم بسبب دمع الندم، صار عابدًا للتوبة]

(مثنوي، ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا، ١٩٩٦، ص١٣٦ وللمزيد راجع سيف عبد الرضا: ١٣٨٠هـ.ش)

ثم يعود الشاعر ثانية لاستكمال القصة فيسرد ما شاهد من ببغاوات الهند ومن خلال ذلك يبثّ جهاد العاشق من أجل التقرب إلى الله ويستشهد بالقرآن الكريم فيقول:

عاشق رنجست نادان تا ابد　　خیز لا اقسم بخوان تا في كبد

[العاشق كادح جاهل إلى الأبد؛ انهضْ وأقرأْ لا أقسم حتّى في كبد]

ثم ينقطع عن سرد القصة ويذكر تفسيرًا لأقوال الشاعر سنائي، وبعد ذلك يعود إلى استكمال الحكاية بعد عودته من الهند وإطلاق سراح ببغائه من القفص وتحليقه طليقًا حرًّا، وتوديعه له فينظم حديثًا عن الروح التي كانت هي هدفه وقصده من هذه القصة فيقول:

خواجه گفتش فی آمان الله برو　　مر مرا اکنون نمودی راه نو

خواجه با خود گفت کین پندمنست　　راه او گیرم که راه روشنست

-جان من کمترز طوطی کی بود　　جان چنین باید که نیکویی بود

[قال السيد في أمان الله؛ الآن وضح لي طريق الرشد طريقًا جديدًا

-قال السيد في نفسه: هذه نصيحتي؛ أن أسلك طريقه لأنّه طريق الرشد

-ليست روحي دون هذا الببغاء؛ هكذا يجب أن تكون الروح دليل السالك]

ثم يختم القصة ببثّ أفكاره ومفاهيمه الصوفية عن النفس والإنسان من خلال ثنائه على الببغاء لسلوكه الطريق إلى الله فيقول:

اینش گوید نیست چون تودر وجود　　در جمال وفضل ودر احسان و جود

[قلت لها لا يوجد مثيلك في الوجود؛ في الجمال والفضل وفي الإحسان والجود]

ثم نادى بكبح جماح النفس البشرية وجهادها لبلوغ غايتها وحدة الوجود، فيقول:

- نفس از بس مدحها فرعون شد　　کن ذلیل النفس هونا لا تسد

- تا توانی بنده شو سلطان مباش　　زخم کش چون کوس چون چوکان مباش

[اغترّت النفس من كثرة الثناء على فرعون؛ "كن ذليلَ النفس هونًا لا تسد"

بقدر استطاعتك كن عبدًا ولا تكن سلطانًا؛ فاكدح ولا تكن مثل الكرة والصولجان]

ويختم الرومي قصته بعنوان "تفسير ما شاء الله كان" مؤكدًا إيمانه بقدرة الله والإخلاص في عبوديته مؤكدًا وحدة الوجود فيقول:

این همه گفتیم لیک اندر بسیچ　　بی عنایات خدا هیچیم هیچ

ای خدا از فضل تو حاجت روا　　باتو یاد هیچ کس نبود رها

قطره علمست اندر جان من وارهانش از هوا وز خاک تن

[قلنا كل هذا ولكن تهيّأ؛ فنحن عدمٌ من دون عناية الله.

-يا إلهي جديرة الحاجة بفضلك؛ وبصحبتك لا يليق ذكرى أحد

-في روحي قطرة من العلم؛ فيا إلهي خلصها من الهوى وتراب الجسد]

الخاتمة:

وختامًا وبعد هذا العرض لهذه القصة نموذجًا للإبداع الروحي الشعري من خلال كتاب المثنوي، يتأكّد أنّ الشعر الروحي نوعان، النوع الأوّل هو شعر تهذيبيّ تعليميّ يتناول المثل العليا للحياة الإنسانيّة وذلك من القصص والحكايات التي يمرّر من خلالها تعاليمه التي يدعو إليها، والنوع الثاني هو شعر عرفانيّ يتضمّن بعدًا فلسفيًّا وجدانيًّا يتناول من خلاله النفس الإنسانيّة وأصلها الإلهيّ، ليس في الحياة الماديّة بل بما تحلّق به في سماء العالم الروحيّ وهي سعادة الإنسان وكمال الخلود.

وهذا هو هدف الرومي في كتابه المثنوي الذي يريد أن تدركه النفس البشريّة، لذا تبوّأ المثنوي منزلة رفيعة في الأدب الإنسانيّ عامّة وفي الأدبين الإسلاميّ والفارسيّ خاصة، لما يتضمّنه من الدعوة إلى التسامح والتعايش السلميّ بين البشر، وهذا ما ندعو إليه في العصر الحاضر من خلال حوار الحضارات.

وأهمّ ما نخلص إليه ما يلي:

١-يُعدّ جلال الدين الرومي من بين الشخصيات الشهيرة الخالدة عالميًّا.

٢-جلال الدين الرومي أحد روّاد الشعر العرفاني.

٣-يُعدّ المثنوي تفسيرًا منظومًا للقرآن الكريم.

٤-المثنوي أحد روائع الأدب الفارسي.

٥-المثنوي يجسّد شخصية جلال الدين الرومي المتعدّدة الجوانب، الفقيه والعارف والشاعر.

٦-ما تضّمنه المثنوي من تعاليم للمبادئ الإسلاميّة يصلح لكلّ زمان ومكان.

قائمة المصادر والمراجع

أوّلًا: المراجع العربيّة

جلال الدين الرومي: فصول من المثنوي، ترجمة عبد الوهاب عزام، وكالة الصحافة العربية (ناشرون)، ١٩٤٦.

جلال الدين الرومي: مثنوي، ترجمة وشرح وتقديم إبراهيم الدسوقي شتا، الكتاب الأول، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٦.

محمد عبد السلام كفافي: جلال الدين الرومي في حياته وشعره، دار النهضة العربية، ١٩٧١، القاهرة.

يوسف أبو الحجاج: سلطان العارفين جلال الدين الرومي، الدار الذهبية للنشر والتوزيع، لاتا.

ثانيًا: المراجع الفارسيّة

جلال الدين محمد بلخی: مثنوی معنوی، به مقدمه بديع الزمان فروزانفر، نشر ثالث، ١٣٩٣.

سيد محمد حسينی: "تلميحهای پيچيده وراز آميز در مثنوی معنوی مولانا"، فصلنامه متن پژوهشهای ادبی، دوره ٦، شماره ١٥، تابستان ١٣٨١.

فرزاد قائمی: "نقش فلسفه تمثيلی در داستان پردازيهای مولانا در مثنوی"، فصلنامه پژوهشهای ادبی، ش ١٦، ١٣٨٦.

٤- سيف عبد الرضا: "داستان آفرينش آدم در مثنوی معنوی"، نشريه دانشكده ادبيات وعلوم انسانی، تهران، دوره ١، شماره ٣، پاييز ١٣٨٠.